

الخلاف النحوي بين المدرستين البصرية والكوفية

(رفع المبتدأ والخبر أنموذجاً)

م.م. زينب اموري داود

وزارة التربية

Lady.zainabhu12@gmail.com

**The grammatical dispute between the visual
and kufic schools**

(Raise the subject and the news as a model)□

أدرك علماءنا الأجلاء ما للغة العربية من أهمية عظيمة إذ اصطفها الله عزَّ وجلَّ لغة للقرآن الكريم، فهبوا حفاظاً عليها من اللحن والإندثار وسعوا إلى وضع قواعد هذه اللغة وفق مناهج وأصول ساروا عليها في إرساء أسس علمية تحفظ للعربية نظامها ولاسيما علم النحو الذي كان في طليعة العلوم العربية، فنشأت في ظل ذلك مدرستان عريقتان هما مدرستا البصرة والكوفة في العراق مركز الحضارة البشرية، فكان لهما دورٌ هام وفاعل في نشوء علم النحو علماً مستقلاً غنياً بمسائله وقواعده ومصطلحاته ومن ثمَّ نضوجه. وكان لكل مدرسة يومئذٍ منهجها وعلمائها وبصمَّتها المميّزة لها، فضلاً عن الخلافات في الآراء النحوية بين علماء المدرستين التي نالت اهتمام الدارسين قديماً وحديثاً. ويهدفُ البحثُ إلى تسليط الضوء على هاتين المدرستين، وأسباب نشوء الخلاف النحوي بينهما، مع عرض أنموذج على طبيعة الخلاف النحوي بين المدرستين يتمثل في مسألة خلاف الفريقيين حول (رفع المبتدأ والخبر).

الكلمات المفتاحية: (النحو، الخلاف النحوي، مدرسة البصرة، مدرسة الكوفة، المبتدأ والخبر).

Abstract:

Our venerable scholars realized the great importance of the Arabic language, as God Almighty chose it as the language of the Holy Qur'an, so they rose to protect it from melody and extinction and sought to establish the rules of this language according to the methods and principles they followed in laying the scientific foundations that preserve the Arabic system, especially the science of grammar, which was at the forefront. In the light of that, two ancient schools emerged, namely the schools of Basra and Kufa in Iraq, the center of human civilization. Each school at that time had its own curriculum, scholars, and its distinctive mark, as well as the differences in grammatical opinions between the scholars of the two schools, which attracted the attention of scholars, ancient and modern. The research aims to shed light on these two schools, and the reasons for the emergence of the grammatical dispute between them, while presenting a model on the nature of the grammatical dispute between the two schools represented in the issue of the two teams' disagreement about (raising the subject and the predicate).

Keywords: (grammar, grammatical dispute, Basra school, Kufa school, subject and predicate).

التصنيف: اللغة العربية لغة الفصاحة والبيان والبلاغة، الهوية الدالة على قومية العرب وانتمائهم؛ ولهذا فقد ضاقوا ذرعاً من اللحن الذي وقع على ألسنة الكثير من الناس بعد اختلاط العرب بالأعاجم، وحرصاً منهم على سلامة اللغة العربية، فقد وضعوا علوم العربية من نحو وصرف وغيرها. وكانت الغاية من تقنين اللغة العربية ضبط سلامة النطق بها لاسيما لغير العرب ممن دخلوا الإسلام واحتاجوا إلى تعلّمها من أجل القرآن الكريم. وهكذا نشأ علم النحو، وكان له علماء ومدرسه ومصطلحاته. وأشهر مدارسه مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، ولكلٍ منهما علماء كبار أعلام كانوا بحق مفخرة للأمة العربية والإسلامية. ومن أهم القضايا التي نالت اهتمام الباحثين هي قضية الخلافات النحوية بين المدرستين البصرية والكوفية التي دارت حول مسائل لغوية كثيرة حتى بلغت مائة وإحدى وعشرين مسألة^(١).

الخلاف لغة: المضادة، وقد خالفه مخالفةً وخِلافاً... وتخالّف الأمران واختلفاً: لم يتقفا، وكلّ ما لم يتساو فقد تخالف واختلّف^(٢).

الخلاف اصطلاحاً: ذكر الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) أنّ الخلاف: "منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حقّ أو لإبطال باطل"^(٣). ولا نجد فرقاً كبيراً بين المعنيين اللغوي والإصطلاحي. أمّا النحو: فهو علمٌ بقوانين يُعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرها، وقيل: علمٌ يُعرّف به أحوال الكلم من حيث الإعلال، وقيل: علمٌ بأصول يُعرف بها صحة الكلام وفساده^(٤). وتعود أسباب نشأة علوم العربية ومنها النحو إلى الحرص على القرآن الكريم من التصحيف والتحريف واللحن والخطأ، وتمتلت بدايات النحو في تنقيط المصحف الشريف، وضبط أواخر الكلم. ورائد هذا العمل هو أبو الأسود الدؤلي - رحمه الله - عند منتصف القرن الأول الهجري^(٥). وشيئاً فشيئاً كثر التأليف فيه حتى غداً علماً مستقلاً له ومُصنّفات، وكانت أول نشأته في العراق؛ لأنه على حدود البادية، وملتقى العرب وغيرهم، وقد توطّنه الجميع لرشاء العيش فيه^(٦).

استقرار النحو في البصرة: تُعدُّ مدرستا البصرة والكوفة أول مدرستين نحويتين نشأتا في العراق وفي الأمة العربية والإسلامية على حدٍ سواء، ويختلف بعض الباحثين حول قضية أسبقية نشوء النحو في المدرستين، إلا أنّ أغلب الباحثين يرون أنّ المدرسة البصرية سبقت الكوفية؛ لاستقرار البيئة البصرية أكثر من البيئة الكوفية التي شهدت صراعات سياسية ومذهبية، يقول سعيد الأفغاني: "والذي تجمع عليه المصادر أنّ النحو نشأ بالبصرة وبها نما واتسع وتكامل وتقلّص"^(٧). وتذكر المصادر أنّ النحو نشأ في البصرة وقد اشتغلت به قرناً من الزمان وهي بذلك سبقت الكوفة التي تفرّغت لرواية الأشعار والأخبار، وقد نما وتطوّر على يد الفريقيين لاسيما على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت

١٧٠هـ)، وأبي جعفر الرؤاسي (ت ١٨٧هـ)^(٨). ويعود السبب إلى نشوء ونمو النحو في البصرة إلى عوامل منها سياسية، فالبصرة كانت عثمانية أموية، والكوفة كانت علوية، وساد الاستقرار في البصرة فاهتم أهل البصرة بالعلوم ومنها النحو، وثمة عامل آخر هو الموقع الجغرافي للبصرة وقربها من البوادي حيث تقد إليها قبائل عربية عُرفت بفصاحتها فاختلط أهلها بالأقحاح من العرب دون تحمل مشقة السفر، فضلاً عن سوق المرید التي تشبه سوق عكاظ في الجاهلية، وكان الشعراء يقدون إلى السوق^(٩). يقول ابن سلام: "وكان لأهل البصرة في العربية قُدْمةً، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية"^(١٠).

أسباب نشوء الخلاف: كان لنشوء الخلاف النحوي أثره في نضج علم النحو، وقد بلغ هذا الخلاف أوجه في القرن الثالث الهجري، يقول أحمد مختار عمر: " فمن ناحية البصرة نجد الأخص سعيدي بن مسعدة، وقطرب، والمازني، والميرد. ومن ناحية الكوفة نجد الكسائي، والفراء وثعلب، وابن السكيت. وهؤلاء جميعاً عاشوا وماتوا قبل نهاية القرن الثالث الهجري. وأهم ما يميز هذه الفترة ارتفاع البحث النحوي ونضجه بدرجة لم تسمح بجديد بعدها. كما يميزها ظهور الكتب الكاملة التي تعالج النحو باباً باباً"^(١١). أما أهم أسباب الخلاف بين المدرستين فهو اختلاف المنهج العلمي والمادة العلمية، إذ اعتمد البصريون على الأفصح من الألفاظ وأخذوا من القبائل المقطوع بعراققتها في العربية فيما قبل الكوفيون كل مسموع، وأخذوا عن أهل الحضرة ولم يُبالغوا في التنقيب^(١٢). وعلى الرغم من الصراع المذهبي والسياسي في ذلك الزمن، إلا أنه لم يكن السبب الوحيد، بل أيضاً حب العلم، وتذكر المصادر أن أبا الأسود توطن البصرة مع تشييعه ومناوأة البصرة للعلويين وتشيعهم إلا أن سلطان هذا العلم استرعاهم فاقبلوا إليه يزفون، وتحلقوا حوله، وتدارسوا مسائله حباً في المعرفة لذات المعرفة، ورغبة في العلم لذاته غير طامعين في مغنم أو حريصين على شيء من حطام الدنيا"^(١٣). وبلغ الخلاف ذروته في القرن الثالث الهجري الذي شهدت نهايته ظهور مذهب البغداديين وانتهاء مجد البصرة والكوفة^(١٤). أما مصطلح مدرسة فهو يعني فكراً ومنهجاً، يقول الدكتور أحمد مختار عمر معرّفاً المدرسة: " وجود جماعة من النحاة، يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو، ولا بد أن يكون هناك الرائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج، والتابعون أو المریدون الذين يقتفون خطاه، ويتبنون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه"^(١٥).

الفرق بين المنهجين (السماع والقياس)

أخذ البصريون من العرب الأفصح من الألفاظ، فاختاروا لذلك القبائل الفصيحة الموثوق بعربيتها وبفصاحتها والتي لم تجاور الحواضر غير العربية أو تخالط الاقوام غير العربية، ومن هذه القبائل قيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يأخذوا من لخم، وجذام، لمجاورتهم أهل مصر، ولم يأخذوا من قضاة، ولا من غسان، ولا من إياد لمجاورتهم أهل الشام، وكذلك لم يأخذوا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة، ولم يأخذوا من ثقيف، ولا من سكان الطائف وسكان اليمامة لمخالطتهم غير العرب، أما الكوفيون فقبلوا كل مسموع ولم يبالغوا كالبصريين في تخير القبائل التي يأخذون عنها^(١٦). واعتمدت البصرة على شعراء البادية في المرتبة الأولى، أما الحضرة فضعفت الثقة بشعرائها من منتصف القرن الثاني، وبالغ البصريون في التحري والتنقيب عن الشواهد السليمة وتجاؤوا عن كل متحول ومفتعل، وآية ذلك أول كتاب لهم، وهو كتاب سيبويه^(١٧). وتشدد البصريون في اختيار سلامة اللغة التي يأخذونها من أفواه القبائل وكانوا يتحرون صحة المرويات اللغوية وصحة رواياتها، بل إنهم كانوا أكثر حرصاً على التأكد من صحة وثقة المرويات التي يأخذونها وثقة رواياتها أي الموثوق بفصاحتهم، أما الكوفيون فكانوا أقل تشدداً وأكثر تساهلاً في التثبت من صحة المسموع وأمانة قائله^(١٨). واعتمد البصريين في النقل على السماع، وكانوا يقيسون عليه فاشترطوا فيما يُنقل عن العرب الكثرة الكاثرة فيقعدون على الأكثر وإلا فعلى الكثير وإلا فعلى القليل وإلا فعلى الأقل وإلا فعلى النادر، وإلا قاسوا الأشباه على الأشباه والنظائر على النظائر إذا لم يتناقض مع الوارد^(١٩). واعتمد البصريون في القياس على المطرد، وما خالف القياس عدوه شاذاً أو نادراً، فيما كان الكوفيون أقل تشدداً في مسألة القياس، فلم يشترطوا الكثرة الكاثرة المنطق على القياس عليها، " فما أوله البصريون أو اعتبروه شاذاً أو ضرورة، قبله الكوفيون وحملوه مقيساً عليه"^(٢٠). وبلغ من اهتمام الكوفيين بالمرويات الشعرية أنهم " لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصل جعلوه أصلاً وبوبوا عليه بخلاف البصريين"^(٢١). فاشتهر البصريون بأنهم أهل سماع، واشتهر الكوفيون أنهم أهل قياس، وليس معنى هذا أن البصريين لم يلجأوا إلى القياس وأن الكوفيين لم يلجأوا إلى السماع^(٢٢). إن الأصل عند البصريين هو السماع وإن صح القياس، ثم يأتي بعده القياس، فإذا اجتمع السماع والقياس في الظاهرة الواحدة أخذوا بكل منهما وإن اختلف السماع والقياس فيها فضلوا السماع على القياس وأخذوا بالمسموع ولم يقيسوا، وإن لم يكن لديهم المسموع فيها لجأوا إلى قياسها على أمثالها^(٢٣). ولا بد من كل خلاف في الرأي أن يترك اثره سواء أ كان هذا الأثر إيجابياً أم سلبياً ولم تكن هذه الخلافات دون أساس تستند عليه، بل كان للمدرستين منهج يستند عليه كل منهما، ولكل فريق منهما حجج وبراهين، فمن

الأثار الايجابية للخلاف النحوي هو كثرة المناظرات، والمناقشات، واللقاءات النحوية مثل مناظرة الكسائي وسيبويه، والكسائي والاصمعي وغيرهما، فضلاً عن المجالس اللغوية التي عُقدت فيها المحاورات المستندة الى أسس علمية، وقد تركت إرثاً لغوياً للأجيال القادمة، ومنها: مجالس الرياشي وثلعب، ومجلس الزجاج وثلعب، وغيرهما^(٢٤). وكان من آثار الخلاف نشوء مدارس أخرى أبرزها المدرسة البغدادية التي اتخذت من الخلاف موقف الترجيح والانتخاب بين آراء البصريين والكوفيين والخروج برأي مستقل من دون تعصب لأحدهما^(٢٥).

المصطلح النحوي بين الفريقين: لم يكن الخلاف بين البصريين والكوفيين بمنأى عن المصطلح النحوي بينهما من المهم جداً التطرق إلى هذه المسألة فالمصطلحات مفاتيح العلوم، التي بها يتم الولوج إلى العلوم كافة، وقد كان للمدرستين الفضل في نشوء هذه المصطلحات وتطويرها فيما بعد. ويرجع تاريخ ظهور المصطلح النحوي مع نشوء هذا العلم، ويمثل كتاب سيبويه أنموذجاً بما قدمه من مصطلحات نحوية وصرفية وصوتية، مع أنها مصطلحات وصفية مطولة، ومنها ما لم يعد مستخدماً اليوم، ولاسيما في كتب المتأخرين. وهذه طائفة من المصطلحات التي اختلف فيها الكوفيون مع البصريين^(٢٦):

المصطلح الكوفي	المصطلح البصري
العماد	ضمير الفصل
الصلة	الحشو
الإقرار	الإثبات
التشديد	التوكيد
لا التبرئة	لا النافية للجنس
الاسم الثابت	الجامد
التكرير / الترجمة / التبيين	البدل
المجهول	ضمير الشأن
حروف الصفات	حروف الجر = حروف الإضافة
المستقبل	المضارع
الأيمان	القسم
الدعاء	النداء
المؤقت	الاسم الخاص العلم
غير المؤقت	النكرة
الفعل الدائم	اسم الفاعل

مسألة رفع المبتدأ والخبر: من المسائل التي اختلف فيها البصريون والكوفيون هي مسألة رفع المبتدأ والخبر، فالجملة الإسمية تتكون من المبتدأ والخبر، وتبدأ عادة بالمبتدأ، فهو الركن الأول فيها وأحد طرفي الإسناد في الجملة العربية. ويقول سيبويه (ت ١٨٠هـ) في باب (المسند والمسند إليه) متحدثاً عن العلاقة بين المبتدأ والخبر: " وهما ما لا يغنى واحدٌ منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بُدأً، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنيُّ عليه "^(٢٧)، ومما سبق فإن (المبني عليه) قصد به سيبويه الخبر. فالمبتدأ هو: " ما جردته من عوامل الأسماء ومن الأفعال والحروف "^(٢٨). وهو أيضاً: " الاسم العاري عن العوامل اللفظية غير الزائدة: مُخبراً عنه، أو وصفاً رافعاً لمستغنى به "^(٢٩)، وعُرف بأنه " المسند إليه، والخبر ما أسند إلى المبتدأ والذي تتم به مع المبتدأ فائدة "^(٣٠). ويعرّف عباس حسن المبتدأ القياسي بقوله: " اسم مرفوع في أول جملة مجرد من العوامل اللفظية الأصلية محكوم عليه بأمر. وقد يكون وصفاً مستغنياً بمرفوعه في الإفادة وإتمام الجملة "^(٣١). ويعرّف الخبر القياسي بقوله: " اللفظ الذي يكمل الجملة مع المبتدأ ويتم معناها الأساسي بشرط أن يكون المبتدأ غير وصف "^(٣٢). إنَّ الأصل في المبتدأ والخبر أن يكونا مرفوعين، مالم يدخل عليهما عامل يُؤثر فيهما، يقول سيبويه: " واعلم أنَّ الاسم أول احواله الابتداء، وإنَّما يدخل الناصب والرافع سوى الابتداء والجار على المبتدأ "^(٣٣)، إذ يشترط سيبويه في المبتدأ أن يقع أولاً، ويوافقه المبرّد في ذلك بقوله: " فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع، يتوقع ما تُخبر به عنه "^(٣٤). فمذهب سيبويه والبصريين أنَّ المبتدأ مرفوع بالابتداء، فيما ذهب جمهور منهم إلى أنَّ الخبر مرفوع

بالابتداء وحده^(٣٥)، ومعنى الابتداء هو " التنبية والتعيرية عن العوامل"^(٣٦)، وهو وصف في المبتدأ يرتفع به، وصفة المبتدأ^(٣٧)، ومذهب الكوفيين أنّ المبتدأ يرفع الخبر، والخبر يُرفع المبتدأ، فهما يترافعان^(٣٨). واختلف بعض النحاة البصريين في رفع الخبر: فمذهب سيبويه وجمهور البصريين أنّ الخبر مرفوع بالمبتدأ، وذهب قوم الى أنّ الابتداء والمبتدأ يرفعان الخبر، ومنهم المبرد^(٣٩). وذهب قوم إلى أنّ الخبر يُرفع بالمبتدأ، والمبتدأ يُرفع بالابتداء^(٤٠)، ويرى ابن جني أنّ المبتدأ والابتداء يرفعان الخبر^(٤١). وخلاصة القول أنّ من اختلف من البصريين عن مذهب الجمهور يرون أنّ الخبر يُرفع بالابتداء لوحده وهو رأي سيبويه وجمهور البصريين، أو بالابتداء والمبتدأ معاً ومنهم المبرد وابن جني، أو بالمبتدأ، والمبتدأ يُرفع بالابتداء. ويحتجّ الكوفيون على أنّ المبتدأ والخبر يرفع كل منهما الآخر، أنّ كل مبتدأ لا بُدَّ له من الخبر وكذلك الخبر لا بُدَّ له من مبتدأ ويكمل أحدهما الآخر؛ ولهذا فكلّ من المبتدأ والخبر يرفع صاحبه^(٤٢). ورأيهم هذا منطلق من اعتقادهم بنظرية العامل والمعمول، " ولا يمنع أن يكون كل واحد منهما عاملاً ومعمولاً"^(٤٣)، ويستشهدون بقوله تعالى: (أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) فنصب (أَيَا مَا) (تدعوا)، وجزم (تدعوا) ب(أَيَا مَا)^(٤٤). واحتجّ الكوفيون على رأي من ذهب من البصريين إلى أنّ المبتدأ يُرفع بالابتداء، وحجتهم في ذلك أنّ الابتداء إما أن يكون اسماً، أو فعلاً، أو أداة. أو أن لا يكون شيئاً " فإن كان اسماً فينبغي أن يكون مثله اسمٌ يوقّعه، وكذلك ما قبله إلى ما لا غاية له، وذلك محال، وإن كان فعلاً فينبغي أن يقال " زيد قائماً " ، كما يقال " حضر زيد قائماً " ، وإن كان أداة فالأدوات لا ترفع الأسماء على هذا الحد. وإن كان غير شيء فالاسم لا يرفعه إلا رافع موجود غير معدوم، ومتى كان غير هذه الاقسام الثلاثة التي قدمناها، [فهو معدوم] ، فهو غير معروف^(٤٥)، فيتضح لنا أن الكوفيين يشترطون لرفع المبتدأ وجود عامل لفظي، لا يخرج عن كونه اسماً، أو فعلاً، أو أداة، وحجتهم في ذلك أنّ الابتداء يكون شيئاً ملفوظاً، مثل (اسم، فعل، أداة)، فالاسم لا بدّ له من اسم قبله يرفعه، وإذا كان الابتداء فعلاً، فالجملة الاسمية تبدأ بالمبتدأ لا بالفعل، فإن كان فعلاً فهو حينها سيرفع المبتدأ وينصب الخبر، فيقال (زيد قائماً) كما يقال حضر زيد قائماً، أما إذا كان الابتداء أداة، فالأدوات لا ترفع المبتدأ، ولا ترفع اسمين معاً، أي: المبتدأ والخبر. ولم يبق إلا أن يكون المبتدأ لا شيء مما ذكرنا، فحينها يحكمون عليه بالمعدوم، وكيف للمعدوم، وغير المعروف أن يرفع المبتدأ. وعلى رأي الكوفيين إن لم يكن الابتداء لفظياً، فهو لا يكون عاملاً؛ لأنّ الرفع يستوجب رافعاً موجوداً غير معدوم؛ ولأنّ الكوفيين يرون أنّ المبتدأ والخبر يترافعان فهذا يعني أنّ العامل هنا ملفوظ.

والإبتداء عند البصريين هو العامل الذي رفع المبتدأ، وهو كذلك التجريد من العوامل اللفظية^(٤٦)، ومعنى الابتداء جعل الاسم أولاً ليُخبر عنه^(٤٧). وخلاصة نظرة البصريين والكوفيين للعامل، هي أنّ العامل لدى نحاة البصرة والذي رفع المبتدأ هو عاملٌ معنوي، أما العامل الذي رفع المبتدأ عند نحاة الكوفة فهو عامل لفظي. وكذلك احتجّ الكوفيون بأنّ الابتداء لا يعني التجرد من العوامل اللفظية، لأنّ هذا يعني أن يكون العامل معدوماً، وعدم العوامل لا يكون عاملاً، وبالتالي فالابتداء عند الكوفيين لا يوجب الرفع، لأنّ المنصوبات والمُسكنات التي تبدأ بها بعض الجمل لا تكون رافعة^(٤٨). واحتجّ البصريون بأنّ الابتداء إذا كان يعني عندهم التجرد من العوامل اللفظية ، فإنّ هذه العوامل ليست حسيّة مثل الاغراق بالماء وإنما دلالات وأمارات ، والأمانة والدلالة تكون بعدم شيء^(٤٩). واحتجّ البصريون من ذهب منهم إلى أنّ الابتداء والمبتدأ كليهما عامل في الخبر، فقالوا بأنّ الخبر يقع بعد الابتداء والمبتدأ، وهما عاملان في الخبر، وهذا القول ضعيفٌ لدى هذا الفريق؛ لأنّ المبتدأ اسم، والأصل في الاسماء أن لا تعمل^(٥٠). واحتجّ الكوفيون على من ذهب إلى أنّ الابتداء يعمل في المبتدأ، والمبتدأ يعمل في الخبر ومن الابتداء؛ لأنّ الابتداء عامل معنوي، ولذلك فهو ضعيف فلا يعمل في شيئين كالعامل اللفظي. فهذا رأي ضعيف عندهم؛ لأنه متى وجب كونه عاملاً في المبتدأ وجب أن يعمل في خبره؛ لأنّ خبر المبتدأ ينزل منزلة الوصف^(٥١). والخبر هو المبتدأ في المعنى، نحو: زيد قائم، ونحو قوله تعالى: (وأزواجه أمهاتهم) { الاحزاب: ٦ } ، أي تنزلن منزلتهن في التحريم. ولأنّ الخبر هو المبتدأ في المعنى، وينزل منزلة الوصف، (فقام زيد العاقل) العامل هو زيد في المعنى، ولأنّ الخبر يتنزل منزلة الوصف كان تابعاً للمبتدأ في الرفع، كما تتبع الصفة الموصوف، والعامل في الوصف هو العامل في الموصوف سواء كان العامل قوياً أو ضعيفاً^(٥٢). واحتجّ البصريون على رأي الكوفيين أنّ المبتدأ والخبر يترافعان بوجهين^(٥٣):

الوجه الأول: أنّ العامل يُقدّر قبل المعمول، وإذا كان كل منهما يرفع الآخر فوجب أن يكون كل واحد منهما قبل الآخر، وهذا محال.

الوجه الثاني: إذا كان العامل موجوداً، فلا يدخل عليه عاملٌ آخر؛ لأنّ العامل لا يدخل على عامل.

وردّ البصريون على احتجاج الكوفيين بالآيات القرآنية التي استشهدوا بها بأنّها لا تمثل حجة من ثلاثة أوجه^(٥٤):

- ١- أنهم لا يسلمون أن الفعل (تكونوا) مجزوم ب (أينما) ، وإنما هو مجزوم ب (إن) ، وأينما ناب عنها لفظاً.
- ٢- يسلمون أن (أينما) نابت عن (إن) لفظاً وعملاً وجاز أن يعمل كل منهما في صاحبه لاختلاف عملهما ولم يعمل من وجه واحد.

عمل كل واحد منهما في صاحبه لأنه عامل. وفي (زيدٌ أخوك) المبتدأ والخبر اسمان، والأصل في الاسماء أن لا تعمل.

ورأي الكوفيين أن الابتداء إذا كان هو التعري عن العوامل اللفظية " فهو إذاً عبارة عن عدم العوامل، وعدم العوامل لا يكون عاملاً "(٥٥).

ويرد البصريون على رأي الكوفيين بقولهم: " قد بينا وجه كونه عاملاً في دليلنا بما يغني عن الاعادة هاهنا ، على أن هذا يلزمكم في الفعل المضارع ، فأنكم تقولون " يرتفع بتعريته من العوامل الناصبة والجازمة ، وغذا جاز لكم أن تجعلوا التعري عاملاً في الفعل المضارع جاز لنا أيضاً أن نجعل التعري عاملاً في الاسم المبتدأ "(٥٦). واحتجاج الكوفيين على قول البصريين أن الابتداء بالمنصوبات والمُسكنات والحروف لو كان موجبا للرفع لوجب أن تكون مرفوعة، يرد البصريون: " أما المنصوبات فإنها لا يتصور أن تكون مبتدأة، لأنها وإن كانت متقدمة في اللفظ إلا انها متأخرة في التقدير؛ لأن كل منصوب لا يخلو إما أن يكون مفعولاً أو مشبهاً بالمفعول، والمفعول لا بد أن يتقدمه عامل لفظاً أو تقديراً، فلا تصح [له رتبة الابتداء]، وإذا كانت هذه المنصوبات متقدمة في اللفظ متأخرة في التقدير لم يصح أن تكون مُبتدأة؛ لأنه لا اعتبار بالتقديم إذا كان في تقدير التأخير "(٥٧). ما سبق ذكره كان احتجاج البصريين عن المنصوبات إن تقدمت، وأما المُسكنات، فكان احتجاجهم عليها: " وأما المُسكنات إذا ابتدئ بها فلا يخلو إما أن تقع متقدمة في اللفظ دون التقدير كان،؛ لأنها في تقدير التأخير، وإن وقعت متقدمة في اللفظ والتقدير فلا تخلو: إما أن تستحق الإعراب في أول وضعها، أو لا تستحق الإعراب في أول وضعها، فإن كانت تستحق الإعراب في أول وضعها، نحو (مَنْ ، كَمْ) . ما أشبه ذلك من الاسماء المبنية على السكون، فإننا نحكم على موضعها بالرفع بالابتداء، وإنما لم يظهر في اللفظ لعلّة عارضةٍ منعت من ظهوره، وهي شبه الحرف، أو تضمّن معنى الحرف "(٥٨). ومما ذكر للتو في الاحتجاجين نرى أن المنصوبات عند البصريين لا يصح أن تكون ابتداءً؛ لأنها متأخرة تقديراً، وإن تقدمت لفظاً. وكل منصوب له عامل ملفوظ أو مُقدّر، وأما المُسكنات إما أن تكون متقدمة لفظاً فقط ، وإما أن تكون متقدمة لفظاً وتقديراً، وحينها إما لا تستحق الإعراب، أو تستحقه، فإن استحققت الإعراب، أُعربت رفعاً بالابتداء، ويقولون: " وإن كانت لا تستحق الإعراب في أول وضعها - نحو الافعال والحروف المبنية على السكون - فإننا لا نحكم على موضعها بالرفع على الابتداء، لأنها لا تستحق شيئاً من الإعراب في أول الوضع، فلم يكن الابتداء مُوجباً لها الرفع، لأنه نوع منه "(٥٩). وهذا هو الجواب عن قولهم " إنهم يبتدئون بالحروف، فلو كان ذلك مُوجباً للرفع لوجب أن تكون مرفوعة "(٦٠). وعدم عمله في محل لا يقبل العمل لا يدل على عدم عمله في محل يقبل العمل(٦١). وإلى هنا انتهى احتجاج الفريقين حول مسألة الابتداء، وقد لاحظنا واستعرضنا حجج كل فريق منهما، وقد بدا لنا واضحاً التنافس بين الفريقين أيهما يأتي بالحجة الأقوى حتى أن الاحتجاج بينهما جعل مسألة الابتداء مسألة جدلية، لكن الفريقين يتفان على أن المبتدأ والخبر مرفوعان، وكل منهما يحتاج الآخر ليتممًا الفائدة. ومن خلال هذا النموذج على المسائل الخلافية بين نحاة البصرة ونحاة الكوفة، نلاحظ حقيقة تأثر المدرسة البصرية بشيء من المنطق والفلسفة أكثر من المدرسة الكوفية، علاوة على استشفاف قوة المنافسة بين الفريقين وتمكن كل منهما علمياً، الأمر الذي يعطينا دليلاً واضحاً وملموساً على أن الدرس النحوي قد قطع شوطاً كبيراً من التقدم جعل للعلماء العرب موطئ قدم في ركب الحضارة الفكرية الانسانية.

الختام:

- ١- يُعدّ العراق مركزاً للإشعاع الفكري والحضاري والثقافي، فقد نشأت الدراسات اللغوية في أعرق مدنه البصرة والكوفة، وحفل بجهازة العلماء، وخيرة العقول العلمية اللامعة سواء من علماء البصرة، أو علماء الكوفة.
- ٢- سبقت المدرسة البصرية المدرسة الكوفية في إرساء أسس علم النحو، وتحديد منهجية علمية. أما المدرسة الكوفية فقد كانت أكثر انشغالاً برواية الأشعار والأخبار والمرويات اللغوية.
- ٣- ترجع أسباب الخلاف بين المدرستين إلى عوامل سياسية وجغرافية ودينية، فضلاً عن اختلاف المنهج النحوي بين المدرستين، وحب التنافس بين العلماء في المجال اللغوي.
- ٤- اعتمدت المدرسة البصرية على السماع أولاً، ومن ثمّ القياس في صياغة القواعد النحوية، وكانت أكثر تشدداً في تحريها اللغة من أفواه العرب الأفحاح الموثوق بعربيتهم، فيما كانت المدرسة الكوفية أقل تشدداً في قبولها المرويات اللغوية.
- ٥- اتفاق الفريقين على أن المبتدأ والخبر مرفوعين، يتمّ أحدهما الآخر، ويقدمان فائدة.
- ٦- ذهب البصريون إلى أن المبتدأ مرفوع بالابتداء، وهذا الابتداء معنوي وليس لفظياً، واختلفوا في رافع الخبر، فذهب سيبويه وجمهور البصريين إلى أن الابتداء يرفع المبتدأ والخبر، فيما ذهب فريق آخر إلى أن الابتداء يرفع المبتدأ، والمبتدأ بدوره يرفع الخبر، وذهب آخرون إلى أن الابتداء والمبتدأ يرفعان الخبر. أما الكوفيون فذهبوا إلى أن المبتدأ والخبر يرفع أحدهما الآخر.

- ١ - هكذا ورد عددها في كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، لابن الأنباري (٥٧٧هـ).
- ٢ - ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٩٠-٩١.
- ٣ - الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، ص٨٩.
- ٤ - المصدر السابق، ص٢٠٢.
- ٥ - يُنظر: مهدي المخزومي، في النحو العربي نقدً وتوجيه، ص١٣.
- ٦ - يُنظر: الشيخ محمد الطنطاوي، نشأة النحو العربي وتاريخ أشهر النحاة، ص٢٠.
- ٧ - سعيد الأفغاني، في أصول النحو، ص١٦٠.
- ٨ - ينظر: محمد الشاطر أحمد، الموجز في نشأة النحو، ص٢٢.
- ٩ - ينظر: أبو البقاء العكبري، مسائل خلافة في النحو، ص٢٧. و الموجز في نشأة النحو، ص٢٢-٢٤.
- ١٠ - ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج١، ص١٢.
- ١١ - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، ص١٢٦.
- ١٢ - يُنظر: الموجز في نشأة النحو، ص٢٥-٢٦.
- ١٣ - نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص١٢٦.
- ١٤ - أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص٩.
- ١٥ - البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، ص١٢.
- ١٦ - يُنظر: الموجز في نشأة النحو، ص٢٥ - ٢٦.
- ١٧ - نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص١٢٩-١٣٠.
- ١٨ - ينظر: الموجز في نشأة النحو، ص٢٦-٢٧.
- ١٩ - ينظر: المصدر السابق، ص٢٧.
- ٢٠ - المصدر السابق.
- ٢١ - المصدر السابق، ص٢٨.
- ٢٢ - ينظر: المصدر السابق.
- ٢٣ - خديجة الحديثي، المدارس النحوية، ص٧٨.
- ٢٤ - يُنظر: عبد النبي محمد مصطفى هيبه جعفر، اختلاف النحاة ثماره وآثاره في الدرس النحوي، ص٣٠٣، ٣٠٨.
- ٢٥ - يُنظر: المصدر السابق، ص٣١١.
- ٢٦ - سعيد جاسم الزبيدي، من إشكاليات المصطلح النحوي، مج١، العددان ١، ٢، ص١٣٦.
- ٢٧ - سيبويه، الكتاب، ج١، ص٢٣.
- ٢٨ - أبو بكر محمد بن السراج، الأصول في النحو، ج١، ص٥٨.
- ٢٩ - الأشموني، شرح الأشموني على الفية ابن مالك، ج١، ص٨٨.
- ٣٠ - يُنظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج٢، ص٢٥٧.
- ٣١ - عباس حسن، النحو الوافي، ج١، ص٤٤٢.
- ٣٢ - المصدر السابق.
- ٣٣ - الكتاب، ج١، ص٢٣-٢٤.
- ٣٤ - الميزد، المقتضب، ج٤، ص١٢٦.

- ٣٥ - يُنظر: الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، ص ٤٠، وعبد الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، ص ١١، وابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج ١، ص ٢٠٠.
- ٣٦ - المُقتَضِب، ج ٤، ص ١٢٦.
- ٣٧ - أبو علي الحسن بن أحمد النحوي، الايضاح، ص ٨٥.
- ٣٨ - الانصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٠، ودروس في المذاهب النحوية، ص ١١١. وشرح الاشموني، ج ١، ص ٩٠.
- ٣٩ - ينظر: المقتضب، ج ٤، ص ١٢٦.
- ٤٠ - يُنظر: الانصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٠.
- ٤١ - ابن جنبي، الخصائص، ج ٢، ص ٣٨٥.
- ٤٢ - يُنظر: الانصاف في مسائل الخلاف، ص ٤١.
- ٤٣ - المصدر السابق.
- ٤٤ - ينظر: المصدر السابق.
- ٤٥ - المصدر السابق.
- ٤٦ - ينظر: الانصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٢.
- ٤٧ - جلال الدين السيوطي، المطالع السعيدة في شرح الفريدة في النحو والصرف والخط، ج ١، ص ٢٥٦.
- ٤٨ - يُنظر: الانصاف في مسائل الخلاف، ص ٤١، ودروس في المذاهب النحوية، ص ١١٣.
- ٤٩ - الانصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٢.
- ٥٠ - يُنظر: المصدر السابق، ودروس في المذاهب النحوية، ص ١١٤.
- ٥١ - ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٣.
- ٥٢ - يُنظر: المصدر السابق، ص ٤٣-٤٤.
- ٥٣ - يُنظر: المصدر السابق، ص ٤٤.
- ٥٤ - ينظر: المصدر السابق، ص ٤٤-٤٥.
- ٥٥ - المصدر السابق، ص ٤٥.
- ٥٦ - المصدر السابق، ودروس في المذاهب النحوية، ص ١١٧.
- ٥٧ - الانصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٦.
- ٥٨ - المصدر السابق.
- ٥٩ - المصدر السابق.
- ٦٠ - المصدر السابق.
- ٦١ - المصدر السابق.

المصادر:

القرآن الكريم

- ١- أبو البركات ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق جودة مبروك محمد مبارك، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ٢- أبو البقاء العكبري، مسائل خلافية في النحو، تحقيق عبد الفتاح سليم، ط ٣، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- ٣- أبو بكر محمد بن السراج، الأصول في النحو، تحقيق د. عبد الحسين القتلي، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.
- ٤- أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، ط ١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- ٥- أبو العباس المبرّد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٩م.

- ٦- أبو علي الحسن بن أحمد النحوي، الإيضاح، تحقيق د. كاظم بحر المرجان، ط٢، عالم الكتب، لبنان، ١٩٩٦م.
- ٧- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، د. ط، المكتبة العلمية، ١٩٥٢م.
- ٨- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، لسان العرب، د. ط، دار صادر، بيروت، د. ت.
- ٩- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، ط٦، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ١٩٨٨م.
- ١٠- بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمداني، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ط٢٠، دار التراث، القاهرة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ١١- جلال الدين السيوطي، المطالع السعيدة في شرح الفريدة في النحو والصرف والخط، تحقيق د. نبهان ياسين حسين، دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٧م.
- ١٢- خديجة الحديثي، المدارس النحوية، ط٣، دار الأمل، أريد، الأردن، ٢٠٠١م.
- ١٣- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى " منهج السالك إلى ألفية ابن مالك"، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٩٥٥م.
- ١٤- سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو، د. ط، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- ١٥- سيوييه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.
- ١٦- عباس حسن، النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، ط٣، دار المعارف بمصر، د. ت.
- ١٧- عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، د. ط، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.
- ١٨- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، د. ط، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت.
- ١٩- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، د. ط، دار المدني، جدة، د. ت.
- ٢٠- محمد خير الحلواني، الخلافة النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، ط١٣، دار القلم العربي، حلب. جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧١م.
- ٢١- محمد الشاطر أحمد محمد، الموجز في نشأة النحو، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ٢٢- محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- ٢٣- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقدً وتوجيه، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

الرسائل والأطاريح:

- ١- عبد النبي محمد مصطفى هيبه جعفر، اختلاف النحاة ثماره وآثاره في الدرس النحوي، جمهورية السودان، جامعة أم درمان الإسلامية، رسالة ماجستير، ٢٠٠٩م - ٢٠١٠م.

الدوريات:

- ١- سعيد جاسم الزبيدي، من إشكاليات المصطلح النحوي، العميد مجلة فصلية محكمة تُعنى بالأبحاث والدراسات الإنسانية، المجلد الأول، العددان الأول والثاني، رمضان، ١٤٣٣هـ / آب، ٢٠١٢م.